بغض الالمان لانكلترا

سببهُ ومعناهُ

انشأ الدكتور آرثر شدويل الكاتب الانكليزي المشهور مقالة بهذا العنوان نشرتها مجلة القرن التاسع عشر . قال :

ليس بين ما أثارتهُ هذه الحرب من الشهوات ما هو اعظم ظهوراً من البغض الشديد الذي تبديهِ الامة الالمانية لانكلترا في القول والفعل . فهذا البغض هو الشهوة البيّنة الأثر في مزدحم الشهوات الجمة المتلاطمة تلاطم الامواج في البحر العجاج . وقد أخذ بهِ الجمهور الانكليزي على غرة فلذلك نراهم اميل الى رمقهِ بعين المستهزىء المتعجب منهم الى رمقهِ بعين الجادّ المعتبر والى تعليلهِ بانهُ « ألمٌ في الطبع » . وقد تنبهَ كثير من الكتّاب بالمستيريه ومرروا النظر عنهُ بابتسامة في طيّها ما شئت من تسامح وتمالٍ وترفّع . وهذا خطأ كبير جدًّا . فان لفظة « هستيري » التي يكثر الكتاب من الالتجاء اليها وزجّها في كل معرض من معارض القول كثيراً ما وضعت في غير موضعها ولاسيما في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها . فالهستيريا ان كانت في البدن فهي مرض وهميّ وان كانت في العقل فهي شهوة وهمية وكلاهما متقلّب لا يستقرُّ على حال من القلق . فاذا استعملت هذا الاستعمال فلا بأس بها لانها كلمة مفيدة ذات معنى محدود ولكن سوء استعمالها جرّدها من معناها الاول

بالامس ظهرت مقالة عن الحرب في مجلة اسبوعية ذات منزلة كبيرة وقد استعملت فيها لفظة هستيريا وهستيري نحو اربعين مرة ولم يستعملها كاتبها مرة واحدة في معناها الاصلي بل لجأ اليها كلّ مرة حيث اراد المهانة والاحتقار . ولكن استعمالنا اياها في وصف البغض الالماني ونحن نريد انهُ بغض كاذب لا حقيقة لهُ يولعنا في وهم فاضح . فان الالمان قوم شديدو الانفعال عرضة للانتقال من النقيض الى النقيض ولكنهم لا يفعلون ذلك اعتباطاً ولا لجاجة ولا لسبب واهٍ . وشهواتهم قوية وحقيقية وشهوة الغضب هذه فيهم اعظم شهوة بدت منهم كأمّة . وقد رأينا بعض صحفهم يميل الى ذمها ولكن ذلك لا يدلّ على تناقصها فيهم وخفة حدتها . فيجدر بنا لذلك ان نحاول درسها وتفهمها لا ان نحتقرها ونهزأ بها اذ ليست مما يصحّ الاستهزاء بهِ في حال من الاحوال . فهي اذا كانت باقية غير زائلة — وهو ما ترجحهُ الظواهر الآن — فلسوف تكون مصدر شرّ مستطير وخيم العقبى جيلاً فجيلاً تمسي عندها امنية السلام الدائم التي يمني الناس انفسهم بها ضغثاً من الاحلام وتحلّ محلها حروب لا آخر لها .

ولست اعلم هل يمكن الخلاص من تلك النتائج بحال من الاحوال اذ يستحيل الآن ان نرى كيف ان الاحقاد الجنسية والحزازات الوطنية التي اثارتها الحرب يمكن ازالتها او الجمع بينها وهذه الحرب حرب امم وشعوب لا حرب حكام ولا حرب ساسة ولا حرب قواد

فالمسألة تقتضي درساً كثيراً . واول الخطوات في سبيل درسها ان نفصّل ذلك البغض وندرك ماهيتهُ تمام الادراك . وقد يظهر لاول وهلة ان ذلك لا حاجة اليهِ ولكن الباحث فيما كتب الكتاب حتى كبار المفكرين في هذا الموضوع يرى هناك ابهاماً كثيراً وغموضاً لا طائل تحتهُ . وهذا الغموض عائد الى سببين الواحد ان لفظة البغض استعملت لمدلولات شتّى . والثاني ان شهوة البغض على كونها من اعظم الشهوات المتسلطة على الناس اهملها الفلاسفة وعلماء الاخلاق ولم يعيروها جانب اهتمامهم . وربما كان القديس توما الكيناس هو الكاتب الوحيد الذي اطال البحث فيها على ما اعلم . وقد ذكرها الفيلسوف لوك عرضاً واكتفى بتعريفها تعريفاً أبتر بقولهِ انها العلم بالألم الحاصل فينا من شيء من الاشياء

والبغض الحقيقي لا يقتصر على ارادة اجتناب الشيء بل يتناول ارادة الاضرار بهِ وابادتهِ . وكلّ شهوة تميل بالمرء الى القتل او حب الابادة تنشأ عن فكرة التضرّر واساسها غريزة المحافظة على النفس التي تعدّ من صفات الحياة الجوهرية . فان الحيّ اذا هوجم حاول ايذاء مهاجمهِ بجهد طاقتهِ او ابادتهُ اذا استطاع الى ذلك سبيلاً . والبغض والحرب من صفات الانسان الخاصة مهما قيل عن وجودهما في سائر الحيوان . والضرر الذي يسبب البغض ثلاثة انواع (١) ضرر واقع . و (٢) ضرر متوقع . و (٣) ضرر متوهم . فان كان الضرر متوقعاً او متوهّماً لا غير فالبغض الذي يجرّهُ زائل غير دائم وقد يكون في حالة وجودهِ حقيقيًّا شديداً . والبغض الناشيء عن الضرر الواقع مصحوب بفكرة الانتقام . والناشيء عن الضرر المتوقع بفكرة الخوف . واجتماع الضرر الواقع والضرر المتوقع اعظم دواعي البغض . وقد يشبه الضرر المتوهم احدهما او كليهما معاً ولكن شبهاً وقتيًّا

وسواء كان الضرر واقعاً او متوقعاً او متوهماً فهو اما ان يكون حسيًّا او معنويًّا او كليهما معاً . والضرر الحسّي او المادي اعم ولكن الضرر المعنوي كالاهانة والاذلال وايذاء الشرف قد يكون اشدّ وقعاً بكثير . واذا اجتمعا كان فعلهما عظيماً . فترى من ذلك ان اجتماع الضرر الحسي والمعنوي واقعين ومتوقعين هو اعظم اسباب البغض بوجهٍ عامّ . ثم ان شدة الشعور بالبغض تتوقف على درجة الضرر وعلى طبع المضرور وهما مختلفان كلّ الاختلاف . وليس من الضروري ان يكون الاذى الذي ينال المؤذى واقعاً على شخصهِ بل

ان الاذى الذي ينال احداً من اعزائهِ وذوي قرباهُ كثيراً ما يشعر بهِ اكثر من شعورهِ بالضرر الذي يقع عليهِ ويثير ثائرة بغضهِ الى حدّ لا يبلغهُ الثاني . فالام تستنكر التعرض لاولادها بسوء والاضرار بهم اكثر من استنكارها لسوء وضرّ ينالان شخصها . والرجل يستفظع كلّ اهانة تلحق بامرأتهِ وبناتهِ واخواتهِ اكثر من الاهانة التي تلحق بهِ . لذلك ترى المحاكم تجيز لمن تقع بهِ اهانة ان يؤدب من يهينهُ بنفسهِ ويسمّى ذلك في اميركا «بالشريعة غير المكتوبة»

وكثيراً ما يكون الاذى المسبب للبغض غير مقصود اي ان فاعل الاذى قد يكون مدفوعاً اليهِ بغير ارادتهِ ولكن مجرد وجودهِ يحسب ضرراً ويفضي الى بذل الوسائل للتخلص منهُ . على ان الضرر غير المقصود ليس سبباً مشروعاً للبغض فلا يتذرع بهِ الاّ اللئيم

***

هذا كلام عامّ في البغض بصرف اطلاقهُ على الفرد والجماعة معاً وبغض المانيا لانكلترا من الشكل الثاني اي بغض الجماعة وبعبارة اخرى هو شهوة وطنية تجول في صدور طوائف الامة كلها بل في صدر كل عضو من اعضائها تقريباً على ما يلوح لنا . وبغض اجماعيّ مثل هذا لا يكاد يكون لهُ وجود الاّ ويشعر صاحبهُ باذى حقيقي اصابهُ ولكنهُ اكثر توقفاً على الاذى الموهوم من البغض الفردي . اذا اجتمع رجلان تدبّ في صدريهما عاطفة واحدة وجعلا يتعاتبان فان نتيجة ذلك العتاب تضاعف تلك العاطفة وزيادتها شدة . اي ان الصفة تتغير تغيُّر الكمية . واذا انتقلنا الى الجماعات وجدنا ان عواطفهم على اختلافها تشتدّ اشتداداً لا حدّ لهُ بالصدى . وهذا ما كان يحدث في المانيا حيث القوم عرضة بوجه خاص لما سميهِ «الاستهواء الجموري»

ليس البغض الالماني لانكلترا بالحديث العهد ولا هو بالفاجئ . بل قد مرّت عليهِ سنون كثيرة وهو في تقدم وفوّ . وقد ارجعهُ اسقف برمنهام الى ايام حرب فرنسا والمانيا . وانا اوافقهُ اجمالاً وان يكن اختباري الشخصي لتلك المدة مخالفاً لاختبارهِ . فقد قال انهُ لما نشبت الحرب بين الامتين تردد الرأي العام الالماني اولاً فيما يكون من سلوك انكلترا ولكنهُ استقرّ بعد ذلك على قرار ثابت فناصب انكلترا العداء اذ علم انها ستلزم الحياد وان الصبية الانكليز في بعض المدن والقرى يتظاهرون بولاء فرنسا وعداء المانيا . اما انا فكنت في ذلك العهد في المانيا فلم ارَ فيها اثر عداء لانكلترا . نعم ان اهل الجنوب في المانيا لم يكونوا يريدون الحرب حسبان ان بروسيا هي المتسببة بها ولكنني قصدت فيما بعد سويسرا واقمت برهة في

فندق ببلدة دانوس وكان الفندق يعج بالالمان من بروسيا وغيرها فالفيتهم على غاية الولاء والمسالمة لي ولغيري من الانكليز النازلين معي في الفندق في حين ان ضلعنا كان مع فرنسا ولعل اعظم سبب في ذلك كونها كانت مغلوبة . ثم عدت الى المانيا وكان مسيري اليها من بحيرة كونستانس فلم القَ اثراً للعداوة حتى بلوغي بلدة آكس لا انا ولا غيري

لكن المانيا اليوم غير المانيا حينئذٍ فقد تغيرت كثيراً وكان تغيرها بطيئاً تدريجيًّا . ففي السنة التالية لتلك الحرب عدت فسافرت من آكس الى باسل فرأيت من صلف الضباط مالا يصدَّق فانهم كانوا يحسبون سائر الخلق حشرات وهوام وتوالت زياراتي لالمانيا واسفاري فيها بعد ذلك فألفيت الصلف العسكري قد خفَّ ولكن بعدما اعدى سائر الامة . وهو مشاهد في المان المانيا نفسها وفي الالمان المقيمين خارجها وربما كان في الثانين اشدّ منهُ في الاولين . ويعبّر الالمان عن هذا السلوك بلفظة عامية هي « شنيدج » ومعناها الاصلي الحدة والوضيع الزهو والادلال اي ان تدعي العظمة وتتأثر بها وتنظر الى سائر الخلق نظر السيد الى العبد او العالي الى مَن هو اسفل منهُ . قال كاتب الماني : « ان كل الماني يسلك مسالك الزهو والإدلال « شنيدج » في بلد غريب ينفر القلوب من المانيا بمالا يصلحهُ مئة رجل صالح فيها » على ان هذا الوصف يعدّ مدحاً على الغالب وما من احد الاَّ ويحبّ ان يوصف بهِ . وغنيٌّ عن البيان ان الالمان يسلكون هذا السلوك بازاء سائر الامم لا بازاء الانكليز وحدهم . وهو تربة صالحة لنمو بذور البغض وزكاء زرعهِ بعد ما بذرت تلك البذور سنة ١٨٧ اي يوم نهجت انكلترا منهجها المعروف في حرب بروسيا وفرنسا فاثار ذلك حقد الدوائر السياسية والعسكرية عليها

وازداد ذلك الحقد شدة سنة ١٨٧٥ يوم قاومت انكلترا سعي المانيا في محاربة فرنسا ثانية والقضاء عليها قضاء مبرماً . ولكن ذلك لا تصح تسميتهُ عداء قوميًّا اجماعيًّا فان العداء القومي الاجماعي بدا في ثورة الخواطر الشديدة التي ثارت في المانيا على انكلترا سنة ١٨٨٧ و١٨٨٨ ايام مرض الامبراطور فردريك الثالث والد الامبراطور الحالي . وكنت حينئذٍ مقيماً بالمانيا فشاهدت تلك الحركة من اولها . وهي قسمان سياسي وعلميّ . والعلمي منها هو الاهم لانهُ مبدأ تلك الروح التي دبت في صدور علماء المانيا فصيرتهم اكثر الناس عداوة لانكلترا واشدهم بغضاً لها . وعداوتهم تفوق عداوة غيرهم بمراحل في مرارتها . وكان غرض عداوتهم الاخص السر موريل مكنزي الجراح الانكليزي الشهير الذي دعي لمعالجة الامبراطور وهو ولي العهد وبقي مستشارهُ الطبي الاكبر حتى موتهِ . وكان زعيم هذه الحركة

الجراح فون برجمان فانهُ استنكر وجود غريب في البلاط الالماني ولكن مصالحهُ الشخصية كانت مطابقة لاغراض بسمرك السياسية ولاسيما ان هذا كان يدير حملة على زوجة ولي العهد (ام الامبراطور الحالي وابنة الملكة فكتوريا) بدعوى انها انكليزية وناخعة روح الاميال الحرة في ولي العهد او مؤيدتها . وكان بسمرك قد استمال اليهِ الصحف والبلاط والحزب المحافظ والامبراطور الحالي وكان الحزب الحر يقاومهم . فاحتدم القتال بالكلام حول سرير ولي العهد العليل وقلق خواطر الامة يزداد كل يوم . ودام النضال بعد ان ذهب الداء بهِ . ذلك ان نشرة رسمية نشرت متضمنة لتفصيل مرضهِ وموتهِ ولم تمكن في واقع الامر سوى طعن في طبيبهِ الانكليزي . وكاتبو تلك النشرة هم الاطباء الالمان الذين صرفوا بين خدمة ولي العهد في مرضهِ او كانت علاقتهم بمداواتهِ قليلة . ولا يمتنل ان تكون قد نشرت بلا موافقة الامبراطور الحالي . وقد كان ما فيها من القذف شديداً الى حد ان حظر نشرها في انكلترا فلم يطلع اطباؤها على واقعة الحال كما هي

لهذه الحادثة اهمية تاريخية عظيمة لانها مبتدأ مرحلة واضحة الحدود في عداء الالمان لانكلترا وخصوصاً اهل العلم منهم . وقد نالني انا نصيب من هذا العداء لا لسبب سوى كره القوم لكل شيء انكليزي . وكانت تعاليم تولستوي قد عززت في الامة قوة معرفة نفسها وزادها عزة توحد كلمتها وباتت انكلترا الهدف الاكبر لذلك الشعور المتزايد . وليست بنا حاجة الى ذكر الحوادث السياسية المختلفة التي حدثت في عهد الامبراطور الحالي وكان لها اعظم مساس بهذا الموضوع فاكتفي بذكر هذه الحادثة الطفيفة التي وقعت بمشهد مني : من اول الاوامر العسكرية التي اصدرها الامبراطور الحالي بعد ارتقائهِ الى السرير امر بنهي الضباط عن لبس الاحذية « ذات الكعب الانكليزي الفيضع » . وكان الرجال في المانيا لا يزالون يلبسون حينئذٍ احذية ذات كعب عالٍ ولكن ظهر في دوائر المثقفين في اللباس ميل الى اقتباس بعض ازياء الرجال من انكلترا ومنها الكعب الواطئ للاحذية . فحال الامر الامبراطوري المذكور دون ذلك الاقتباس . هذه الحادثة تافهة في حد نفسها لا يكاد احد يذكرها ولكنها بدء عصر جديد عصر ترويج كل شيء الماني كبيراً كان او صغيراً

على ان تسلط الروح الالماني على الدوائر السياسية والتجارية اقترن من هذا العهد فصاعداً بشكل آخر من اشكال التبسط الوطني فعل ما لم يفعلهُ شيء غيرهُ في تكوين طبع الامة الحالي . أريد بهِ تقدم التجارة والصناعة مما صيرها ذات ثروة ويسار وساعدها على ازدياد عددها ازدياداً كثيراً وارتفاع نفقات المعيشة . وهذا التقدم حديث العهد فجائي ولست ازيد

القول ان المانيا حديثة العهد بالتجارة والصناعة لانهما كذلك قديمة فيها . وانما اريد ان التقدم الحديث جرى بسرعة اخذت القوم على غرة فبدأت من عاداتهم كل تبديل في العشرين سنة الماضية او اقل منها فانهُ لم يكد يبدأ عند جلوس الامبراطور الحالي . والانقلاب العظيم الذي طرأ على البلاد منذ ذلك العهد يستوجب الدهشة وقد كان اقوى العوامل على توحيد الامبراطورية وانضواء القوم الى لوائها ورضائهم بالنظام الذي يؤيدها وتقوية روح الاعجاب بالنفس والطموح الى المعالي والنظر الى سائر الامم كما ينظر الرفيع الى الوضيع وترويج الفكرة المعبَّر عنها بثلاث كلمات من النشيد الالماني الوطني وهي « المانيا فوق الكل » . وزد على ذلك ان تقدم الالمان العجيب السريع جعلهم امة ذات صلف وخيلاء لانهُ تقدم مادي منظور ملموس باغتهم فلم يصحوا من نشوته . وكما امتهنوا العدو الذي قهروهُ سنة ١٨٧١ كذلك صاروا يمتهنون مزاحمهم الاقتصادي الذي يعدونهُ مغلوباً ويشعرون بانهم اغتصبوا مكانهُ وما يحف بهِ من اسباب الفخر والشرف . فالنجاح العسكري والنجاح المالي اشعرا الالمان بانهم اهل حولي غير محدود وانهم اشرف طينة واطيب عنصراً من سائر الاقوام . وان الاقدار خبأت لهم مجداً مؤثلاً لا حدَّ لهُ يعرف ولا آخر يوصف

ليس هذا حكم غريب فيهم بل هو مبسوط ومفصل كلَّ التفصيل في مؤلفاتهم الحربية وفيها تعداد مناقبهم واسباب سموهم على سائر خلق الله في كلّ باب وتجليتهم في كل ميدان . اما انا فأرى انهُ يحق لهم الازدهاء لانهم صنعوا العجائب . ولكن تماديهم في هذا الازدهاء وتعبيرهم عنهُ بلغة خارجة عن حدود الاعتدال والتباهي بانانيتهم تباهي الصبية وتخبطهم في الكلام عن الآداب والاخلاق (وهو ما يسمَّى بالالمانية Kultur) واحتقارهم للامم التي كانت رائدة المشروعات الصناعية والتجارية والتي المانيا مدينة لها بالعناصر اللازمة لارتقائها — هذا كلهُ دليل على خلل تامّ في قوة التوازن . فان الامة الالمانية معروفة بشدة الانفعال وبسرعة التحوُّل من الشيء الى ضدهِ والانتقال من طرف الى الطرف الآخر . وقد سمعنا بها نجاهم ورفاهيتها الى ذروة الاغتباط بما أوتيت من النعمة وهذا ما لم يتظاهر بمثلهِ احد قبلها مهما تكن حقيقة شعورهِ

وبعد حادثة الامبراطور فردريك ومرضهِ ووفاتهِ وجلوس الامبراطور الحالي بقي ثبت ذلك البغض يقوى حتى كانت حرب البوير فعجَّلت نموهُ وظهر فيها قوة وطنية لاول مرة . نعم ان معظم الامم كانت تذمّ اقدام انكلترا على محاربة البوير ولكن هذا التيار كان اقوى في المانيا منهُ في سائر البلاد حتى بلغ حدّ البغض . فان امبراطور المانيا كان قد اوقف نفسهُ

موقف حامي البوير ومناهض السياسة الانكليزية فامّن قومهُ على هذه الخطة تمام التأمين. وفعل ما حمل البوير على ان يمنّوا انفسهم بمساعدته وحمايته ولكن لما جاء اوان المساعدة تخلّى عنهم. ولم ينل المانيا اذى ماديٌّ من ذلك ولكن الاذى المعنوي كان كبيراً. فالضربة على حسن ظنها بنفسها شديدة فقد شعر بها الجميع من الامبراطور والحكومة الى اصغر الرعية لما علمت من حالتهم العقلية فكانت نقطة انقلاب في سلوك الامة اذ شحذت عزيمتها على انتهاج سياسة التبسط وزيادة القوة البحرية. وكانت راغبة عنهما قبل ذلك. وملأت الهواجس الحربية خواطر الاقوام المسالمة المطمئنة فباتت فكرة الحرب شغلها الشاغل وهمها الناصب. وقد قال لي بعض عقلاء الالمان منذ عشر سنوات ان المانيا تستطيع منازلة فرنسا وروسيا معاً. ثم جاء الاتفاق الانكليزي مع فرنسا اولاً ومع روسيا ثانياً وهما الدولتان اللتان اذا خطرتا على بال المانيا فلأمر ذي علاقة بالحرب فزاد ذلك الاتفاق بغض الالمان لانكلترا وزادهم ميلاً الى الحرب وجعلوا ينتقدون الامبراطور على مغالاته في التودّد الى انكلترا وفي مسالمتها

وليس هناك وهم اعظم من ذلك الوهم الذي لا يزال متسلطاً على بعض الاذهان وهو انهُ يجب الفصل بين الامة الالمانية وامبراطورها والنصر الحربي فيها لانها انما دفعت الى الحرب او اقتيدت اليها مكرهة مسيّرة رغم ارادتها. والحقيقة هي على الضدّ من ذلك فيما يخص الامبراطور. فان الامة لم تمل اليهِ قط مثلما مالت اليهِ لما شهر الحرب وقابلهُ عند مروره في شوارع برلين بمظاهرة بلغت حد الجنون ومع ذلك بقي ساكتاً صامتاً لا يحير جواباً ولا يبدي اشارة. وتضاعفت حمية القوم لما علموا انهم سيحاربون انكلترا ايضاً وقالوا قد آن الاوان لاخراج الشهوة التي غلت بها صدورنا هذا الزمان الطويل بين القوة إلى الفعل. فقد مرت سنون كثيرة وجميع طبقات الامة الالمانية تتربص بانكلترا ريب المجنون وتتمنى لها الشر وتتمنى الشر هو من اول علامات البغض. اقول انكلترا ولا اقول الانكليز واريد انكلترا كدولة وقد شاهدت هذا الشعور واضحاً حتى بين اقرب الالمان مودةً للانكليز وابعدهم عن المشاغبة وفي الحفلات الاجتماعية الصرفة التي دعا اليها داعي القرى والاخاء وخيّل اليّ ان المانيا كلها أشربتهُ. ولست أريد ان الالمان كانوا يتوقعون محاربة انكلترا والواقع على ضدّ ذلك ولكنهم تمنوا اذلالها ولو جاء لرحبوا بهِ مهما يكن مصدرهُ. ولما ظهر لهم ان الاقدار تهيأت بان يتولوا تلك المهمة بايديهم قاموا لذلك قومة رجل واحد

هذا هو البغض الاكيد وهو ان تتمنى الضر لغيرك وتسعى اليهِ بنفسك وهنا مسائل نسأل انفسنا اياها وهي: هل نحن المتحيّزون بذلك البغض، وكيف تسببنا بهِ. وهل يمكن تخفيفهُ

وكيف يكون ذلك. ولأي سبب يبغض الالمان انكلترا . وجواباً على هذه المسائل اقول :

رأينا ان البغض قد ينشأ عن ضرر حادث او متوقع او موهوم وانهُ قد يكون حسيا او معنويًّا . فان كان الضرر متوقعاً او موهوماً امكن استئصال البغض الناشيء عنهُ ولكن ان كان حقيقيًّا واقعاً فالصعوبة عظيمة في استئصال البغض الناشيء عنهُ . ولا يمكن القول ان انكلترا اصابت المانيا قبل الحرب فعلاً بضرر حسي . فانهما لم تكونا قط عدوتين وكانتا احيانًا حليفتين . ويقول الالمان الآن انهُ لما كانت المانيا وانكلترا حليفتين كانت انكلترا تترك المانيا وشأنها تتعب وتزرع وحدها فتى يأتي الحصاد والقطاف تجمع انكلترا الثمر لنفسها. وهذا تشويه لوجه الحقيقة التاريخية دعا اليهِ الهوى . واذا رجعنا الى الحروب البسمركية التي خرجت بروسيا ثم المانيا منها ظافرة وجدنا ان انكلترا لم تكن سبب ضرر مادي ما للمانيا . ومنذ بدأت المانيا سياستها الاستعمارية سنة ١٨٨٤ ساعدتها انكلترا في امتلاك بعض البلاد . وتنازلها لها عن جزيرة هليجولند (المناوحة للساحل الالماني على البحر الشمالي) سنة ١٨٩٠ كان قياضاً حسيًّا عزّز مركز المانيا البحري كل التعزيز . وفي الحوادث السياسية الاخيرة لم ينل المانيا اذى ولا خسران وقد شهد كتابها بان تسوية مسألة سكة حديد بغداد كانت في مصلحتها . ومن الوجهة التجارية لم تميز انكلترا احداً عليها ولا فرقت بينها وبين احد بل فتحت امامها باب مستعمراتها اسوة بسائر الامم . وجهد ما هناك انهُ سنّ قانون يقضي بان كل سلعة اجنبية ترد على المستعمرات الانكليزية يجب ان يبيّن عليها مكان صدورها . وهذا القانون يسري على جميع البلاد بالسوية وقد اعترف الالمان بانهُ افادهم اعظم فائدة لانهُ جاء شبه اعلان عن سلعهم

وليس بين اعمال انكلترا عمل ما الحق بالمانيا ضرراً حسيًّا ولا الالمان يشيرون في كتاب من كتبهم حتى المتضمنة لاشدّ مطاعنهم في انكلترا الى عمل او شبه عمل من هذا القبيل . ومع ذلك كلهِ لحق بالالمان ضرر مادي منًّا وهذا هو معظم السبب في بغضهم لنا . فان السلطنة الانكليزية تؤذي المانيا بمجرد وجودها اذى سلبيًّا لا ايجابيًّا مقصوداً اذ هي حاجز حصين في سبيل تبسطها وتوسعها . وغنيّ عن البيان ان الذنب ليس ذنبنا ووجود الشيء ليس سبباً مشروعًا لبغضهِ بل الذنب ذنب المبغض . فان طموح المانيا وحالتها العقلية التي وصفناها آنفاً هما اللذان يبغضان السلطنة الانكليزية اليها . اما سائر امم الارض فلا تبغضنا لوجودنا . على اننا نفهم شعور الالمان فنعذرهم بقدر فهمنا اياهُ . فان قوماً بلغوا ما بلغوا من كثرة العدد والثروة والقوة والكفاءة لا بدع ان يحدو بهم ذلك ان

يحلوا من هذا العالم مكاناً مناسباً لتلك الصفات وان يقتنوا الاملاك غير الجار اسوة بامم دون الامة الالمانية في سعتها وفي امور كثيرة غيرها . ولكنهم كيفما التفتوا رأوا اطيب بقاع المعمور في حوزة اقوام غيرهم وانكلترا في مقدمتهم . فلا بدع اذا حرقوا الارض عليها غيظاً لوقوعها في سبيلهم حيثما ضربوا في مناكب الارض . فقد جاؤوا الوليمة متأخرين وان كانت مقاعدهم حولها قليلة وكان ازدحام شديداً فذلك من سوء بختهم لا من ذنب غيرهم ولكن سوء البخت يهيج الحفائظ و يثير الضغائن كثيرة

ولو ان المسألة انتهت عند هذا الحد فكف شهود الوليمة عن الاكل حيناً مدت المانيا يدها الى الزاد لما شعرت بغم او نكد لان ذلك يمكنها من تعويض نفسها عما فاتها بتأخرها عن الوليمة . فانها جلست حول المائدة سنة ١٨٨٤ وفي الثلاثين سنة التي انقضت منذ ذلك التاريخ التهمت شيئاً كثيراً ولكن مؤاكليها وخصوصاً انكلترا لم يكفوا عن الاكل . وبعد حرب البويرظهر بغض الالمان لانكلترا بمظهره المعروف ثم جاءت مسألة مصر . ثم ان هذه المسألة من الشؤون التي تخص فرنسا دون المانيا ولكن نجاح انكلترا جعل كأس مرارة المانيا دهاقاً . وتلك التسوية المصرية استيلاء انكلترا على هذه البقعة وتلك الارض في شرق افريقية وغربها وبرما . وكانت المستعمرات الانكليزية في خلال ذلك تنمو وتزداد قوة ونشاطاً . واشتغلت روسيا وانكلترا بشؤون ايران وفرنسا وايطاليا بشؤون بحر الروم والمانيا واقفة مكتوفة اليدين تشاهد ما يجري ولا تحرك ساكناً . فنشأ عن سكوتها هذا مطالبتها « بالعوض » في الازمة المغربية فارتدت بالفشل والخذلان المعنوي للمرة الثالثة وزاد ذلك بغضها لانكلترا وحقدها عليها . ولا تزال كتابات الالمان الحماسية تستشهد بالخطب التي خطبها وزراء انكلترا في تلك الازمة (ومنها خطبة المستر لويد جورج التي توعد فيها المانيا بصريح القول)

ففي هذا كله ما يكفي لتعليل بغض المانيا لانكلترا قبل الحرب ان لم يكف لتبريره . وكان ذلك البغض قد خف قليلاً على اثر المفاوضات الودية التي قامت على المشكلة البلقانية وتحول بمراه في جهة روسيا فلما اشتركت انكلترا في الحرب الحاضرة ضد المانيا وكان الرأي العام الالماني قد اطمأن اليها بعد تحسن العلاقات السياسية بين الدولتين يزاد سخط الامة الالمانية اضعافاً مضاعفة على انكلترا فاتهمت بانها غادرة ذات وجهين وساد الاعتقاد بان الحكومة الانكليزية دبرت هذه الحرب متعمدة وادارت حركتها وليس لها غرض الا سحق المانيا حسداً على ما اوتيت من النجاح في التجارة . وقد توصلت الى بلوغ هذا الغرض بحمل الحكومة الالمانية على الاعتقاد بصداقتها . ولست ادري صاحب هذا الرأي وانما ادري ان

الالمان قبلوهُ على علاتهِ حيثما وجدوا بلا قيد ولا تحفظ . فتراهم يرددونهُ في كتاباتهم وهم يعتقدون صحتهُ وعندهم ان السر ادورد غراي هو الاصل المباشر لهذا البلاء وانهُ انما ينفذ الخطة التي رسمها الملك ادورد

ويصعب علينا نحن الانكليز ان نصدق ان الالمان يعتقدون صحة هذا القول ولكن اعتقادهم بصحتهِ ثابت الاصل لا يمرّ بهِ ظل ريب . يعتقدون انهم فرائس مكيدة مدبرة يراد بها سحقهم وابادتهم . ويدير حركة هذه المكيدة انكلترا حسداً لهم على نجاحهم التجاري . كلّ ذلك وهي تدعي صداقتهم وحسن الظن بهم . وهذا وحدهُ هو سبب بغضهم الشديد لانكلترا واجماعهم على ذلك البغض . والسكوت عما نالهم من خيبة الآمال قانعين مستلين . واحتمال الاعباء الثقيلة والتضحيات الغالية في سبيلهِ . وعقدهم العزم الذي لا يتزحزح على الثبات حتى النهاية رغم كل شيء . ولما كانوا مقتنعين بانهم يقاتلون دفاعاً عن كيانهم من مكيدة نصبت لابادتهم فلا بدع اذا قاتلوا مستقتلين الى آخر نسمة من انفاسهم

ليست المسألة معرضاً للهزل والكلام يلقى على عواهنهِ بل هي معرض لجد ما بعدهُ جدّ . لان معناها ان هذا العراك سيسومنا من الجهد والتضحية اكثر مما نقدّر الآن بكثير وان النهاية لا تزال بعيدة وانها متى جاءت لا تكون نهاية . فان العواطف التي تنشأ عن هذه الحرب ستدوم ميراثاً للاجيال التي تجيء بعدنا . وقتل الالمان للآمنين من غير المحاربين وسوء معاملتهم للاسرى — وهما نتيجة البغض الكامن في صدورهم لنا — أثرا فينا وحملانا على بغض بازاء ذلك البغض وكان غريباً عنا . ولست ارى لذلك آخراً . ولا يحسبنّ احدٌ ان الامة الالمانية يمكن ان تباد او تُضعف على الدوام . فان فكرة مثل هذه انما هي وليدة الغضب والجهل . فان الالمان سيبقون سبعين مليوناً وفي الجيل الآتي يصيرون تسعين مليوناً (اي بعد نحو ثلث قرن) لم مالاهل هذا الجيل من المواهب والقوى لكسب العمل والقدرة على التنظيم وادامة السعي او بلوغ الغرض ونظام للتربية بديع وسائر النظامات الاجتماعية التي وضعوها وكيفوها لتشييد صرحي القوة والثروة

ومما لا غنى عنهُ في هذا المقام القول ان انكلترا لم تدبر هذه الحرب ولا ارادتها ولا توقعتها . ولو كانت تضمر شرّاً وتدبر حرباً لاصغت الى اللورد روبرتس (يوم حضها على الخدمة العسكرية الالزامية) . كذلك لا صحة لما يعزو الالمان من نيات السوء الى الملك ادورد او الى السر ادورد غراي . ومن الوهم ان يقال اننا كنا نضمر البغض والحسد لهم . نعم اننا لا نحبهم ولكن الفرق واضح بين الامرين . وقد اخذوا يدركون انهم غير محبوبين في كل مكان .

هم يبغضون انكلترا لا الانكليز . ونحن نكره منهم من لم يكن صديقاً شخصيًّا لنا بل غير ان نبغض المانيا . اما الحسد التجاري المزعوم فاقول قول عارف ان صناعنا وتجارتنا في مركز يُحسدون عليه ولا يحسدون احداً . وخلو قلوبهم من الحسد اعظم ضعف فيهم فان حسداً قليلاً منهم يعود بالخير عليهم . وان كانوا يحسدون احداً في العالمين فانما يحسدون الولايات المتحدة الاميركية لا المانيا . وسواء كان هذا او ذاك فان الحسد التجاري ليس بالسبب المعقول ولا المقبول للحرب في العهد الحديث

ويكاد اقناع الالمان بهذه الحقائق يكون من المستحيل فلا سبيل الى تغيير اعتقادهم لاصلاح هذا الحال الا السعي في اكتساب احترام اعدائنا لنا . ولا سبيل الى حملهم على احترامنا الا قهرهم . فان احترامك لخصمك هو الخطوة الاولى الى انصافه والاقرار قوته حق قدرها . فاذا وجد الالمان انهم مخطئون في امر من الامور ادركوا انهم قد يكونون مخطئين في غيره لانهم قوم اهل عقل وحصافة . ثم انهم يحترمون القوة فلقهرهم اننا اقوياء بل اقوى مما كنا . وقد اتى جيشنا الآن فعالاً مجيدة بددت رأي الالمان الاول فيه ونالت احترامهم له . ولكننا في انكلترا انفسنا اقل منا نجاحاً في خارجها . وبعض السبب في ذلك اختلاق الاخبار عن الرعب المستحوذ على الامة وفشل التجنيد الاختياري . ثم ان ما بدا من قصورنا في اعداد معدات الحرب ومهما كل المال والجدال الحائم على مسائل أسباق الخيل ومسئلة المشروبات — هذه كلها تولد في قلوب الالمان احتقاراً لنا

ان قهر عدونا عمل يستنفد جميع قوانا فلنوجهها كلها اليه ولنسكت عن المناقشة في شروط الصلح « بعد الحرب » فان الكلام فيها الآن لهو باطل اذ ليس في وسع احد معرفة النهاية ولاسيما ان موت رجل واحد قد يوقع الخلل في كل حساب ويقلب وجه الحالة الحاضرة من اساسه . والمؤكد ان موت احد رجلين يفضي الى هذه النتيجة وان موت احد ثلاثة او اربعة غيرهم ربما افضى اليها ايضاً

والخلاصة اننا متى حزنا احترام الالمان واقنعناهم بانهم رفعوا انفسهم الى فوق ما يجب وحطوا غيرهم الى تحت ما يجب وبانا لم ندخل الحرب غدراً تعمد سحقهم وان انكلترا ليست غول الحسد والبغض والخيانة كما يصورون — فحينئذٍ نستطيع استئصال شأفة البغض المستحكم في صدورهم . لنقنع الالمان اولاً بانهم وضعوا كفاءتنا دون موضعها . وثانياً بانهم وضعوا جشعنا فوق موضعه . وكل سعي في بلوغ الغرض الثاني قبل الاول سعي عقيم غير مجدٍ بل هو مفوة لا تغتفر » انتهى ملخصاً